

استلهام التراث البلاغي الغربي في التأصيل المعرفي لنظرية البلاغة الجديدة

Inspiration of Western rhetorical patrimony in the conceptualization of the theory of new rhetoric

د. بشير دردار

bacderdar@gmail.com

المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي - تيسمسيلت (الجزائر)

تاريخ القبول: 2019-02-14

تاريخ الإرسال: 2018-12-11

الملخص:

قام التأصيل المعرفي لنظرية البلاغة الجديدة لـ "برلمان" و "تتيكا" على عدة منطلقات نظرية؛ أهمها: التأسيس التراثي لها من خلال إحياء التمييز الأرسطي الإيجابي بين الحجاج والبرهان، واستبعاد الرفض الديكارتي للمعرفة المنتجة خارج دائرة العلوم الاستدلالية الصارمة، واتباع ذلك بتوسيع دائرة الخطابات التي يشملها التنظير البلاغي، لتستوعب كل الخطابات ذات البعد التواصلية النفعي. كما قام هذا التأصيل على بعث الحياة في التراث البلاغي الغربي الكلاسيكي، من خلال التركيز على الحمولة الحجاجية للأساليب البلاغية، وإعادة تصنيفها وفقاً لذلك، لتدفع عنها تهمة التكلف اللفظي التي ظلت ملتصقة بها زمناً طويلاً. واستدعى ذلك أن تعدل نظرية البلاغة الجديدة مجال تخصصها، فتعتمد على البعد اللغوي المحض، عندما نأت بنفسها عن الاختصار على فن الخطابة، فلم تكن بالمؤثرات غير اللسانية، كالإشارة ونبرات الصوت، وغيرها.

يقترح هذا البحث رصد هذه المنطلقات التأسيسية، وما يتفرع عنها من تصورات، مع مناقشتها وتحليلها من موقع المتلقي العربي المنشغل بقضايا البلاغة والحجاج في التراث، وفي الممارسات الخطابية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الحجاج؛ أرسطو؛ الوجود البلاغية؛ الخطاب؛ العقلنة

ABSTRACT: The epistemological foundation of Perelman and Tyteca's theory of the new rhetoric is based on several theoretical postulates, the most important of which are: the anchoring of the theory in the Greek rhetorical heritage through the positive distinction between argumentation and demonstration, and the exclusion of the Cartesian rejection of knowledge produced apart from the so-called strictly demonstrative sciences. In conjunction with that, the extension of the field of study to all useful communicative discourses. Then comes the revalorization of classical European rhetoric, through the rediscovery of its argumentative potential, and the revision of the classification of its notions accordingly, so that this rhetoric is rehabilitated after being denigrated for too long. The third postulate is the strictly linguistic dimension that the two researchers imposed on the analysable discourses of their theory. Extra linguistic phenomena, such as gestures, intonation, and others, are excluded. The present article aims to identify these postulates and analyze them from the point of view of the Arab receiver interested in the debate around rhetoric and argumentation.

Key Words: rhetoric; argumentation; aristotle; discourse; figures of speech ; rationalization

مقدمة:

إن الناظر في الخطاب العربي المعاصر المهتم بالتراث، على اختلاف أنماطه واتجاهاته، لا يكاد يغيب عن وعيه اللحظة، عسر التعاطي مع قضايا هذا التراث، واكتساء هذا التعاطي عند كثيرين بالمظهر المرضي العصبي، الذي يعكس خصائص العلاقة غير السوية مع الماضي إجمالاً، ومع التراث الثقافي منه خاصة. يخيّل إليك وأنت تقرأ للعرب المعاصرين المهتمين بالتراث أن إشكالية التراث عربية خالصة، وأن التراث "فضيلة مقصورة على العرب"، وأن هذا التراث عظيم غني بالإنجازات، التي تغنيهم عن الاستفادة من الآخر. وبديهي أن التراث ليس كذلك، فالتراث إشكالية

كونية، تم كل الثقافات، وتعني بها كل الشعوب والأمم. وأن ما يقال عن القطيعة مع الماضي في لحظات تاريخية معينة عند الأمم الأخرى، لا يعدو أن يكون مراجعة وضبطا للعلاقة مع التراث، استبقاء للعناصر الحية فيه، وعزلا لما شاخ وتيس، وأصبح عامل كبح أمام حركة التطور. هنا يكمن الفارق بين نظرتين للتراث عندنا؛ نظرة تقديسية تزعم أن التراث غني بمحمولاته، عظيم بمنجزاته، كاف لتمكيننا من تحقيق الوثبة الحضارية، دون الحاجة إلى مراجعته، أو مساءلته، أو تطعيمه بما لدى الغير. أما النظرة الثانية، فهي تنظر إلى التراث نظرة موضوعية بوصفه منجزا بشريا، تتحكم فيه اشتراطات تاريخية واجتماعية وإيديولوجية، وأنه بطبيعته يستدعي المراجعة والانتقاء، والإضافة والإقصاء، ولولا ذلك لما تشكل هذا التراث بالصورة التي وصلت إلينا.⁽¹⁾

يغفل الكثيرون، في إطار المقارنة التي يجرونها عادة بيننا وبين الغرب في مسألة التفاعل مع التراث، قضية في غاية الأهمية، وهي الطابع الإشكالي والحساسية التي تثيرها مسألة استلهام التراث في بناء النظريات المعاصرة، والتأسيس المعرفي لها. فقلد استقر في وعي القارئ العادي، وربما الباحث المبتدئ عندنا، أن هذا الغرب منقطع عن ماضيه، متنكر لتراثه، لا يقدم باحثوه أطروحة، إلا أقاموها على مبدأ القطيعة مع هذا التراث. والذي يقع حقيقة من خلال تتبع ما جاءت به النظريات المعاصرة في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، عامة، هو أن هذا التصور أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة؛ ذلك أن مفهوم القطيعة التامة متعذر عمليا أولا، وأن كل معرفة في تاريخ البشرية إنما تبنى على التراكم؛ أي على أن تضيف إلى معرفة سابقة عليها.⁽²⁾

أحاول في هذه المقالة أن أبين، من خلال تفحص نموذج نظرية البلاغة الجديدة لبيرلمان وتيكا، كيف أن الفكر البلاغي الغربي المعاصر ظل مشغولا، على الدوام، بالبحث عن علاقة سوية منتجة مع تراثه، ولم يفكر أصحابه أبدا في إحداث قطيعة نهائية معه؛ الأمر الذي يحدونا إلى القول إن تعاطيا مع التراث بهذه الصورة يقدم لنا نموذجاً جديراً بالتأمل، إن لم يكن جديراً بالاقتداء.⁽³⁾

مداخل نظرية:

تقتضي المعالجة التي نقرحها لموضوع استلهام التراث في نظرية البلاغة الجديدة أن نستحضر مداخل نظرية عامة، من شأنها أن تيسر لنا، فيما بعد، تمثل أبعاد الموضوع، وتأطيره ضمن الرؤية المعرفية التي ننطلق منها، والمقاربة المنهجية التي نعتمدها. وقصدنا الأدق من تقديم هذه المقدمات النظرية العامة هو لفت الانتباه إلى الأطر الفكرية الكونية العامة، التي لا يصح التغافل عنها عندما نخوض في موضوع التراث، وما يطرحه من إشكالات؛ بغية الخروج من ضيق القراءات التبجيلية، التي يميزها الكسل المعرفي المتدثر بمزعم الدفاع عن الهوية، ورد غوائل الغزو الثقافي من جهة، والاحتماء من عدوى القراءات الغربية المتحيزة إيديولوجيا، والمتمركزة ثقافيا، والتي تتحكم فيها المسابقات المقررة في دوائر بعيدة مشروعاتها وأهدافها عن الاهتمام بالتجرد العلمي، والنزاهة الفكرية، من جهة أخرى.⁽⁴⁾

وسيكون الإجراء، المتبع في عرض هذه المقدمات النظرية العامة، معتمدا على خطوتين، هما: الإضاءة النظرية أولا، والتمثيل التطبيقي من نظرية البلاغة الجديدة وغيرها من النظريات ثانيا.

• التراث ومقولة التراكم المعرفي:

عندما نعرض بالدراسة والتحليل لقضايا التراث، يفترض أن نحضر في أذهاننا، صراحة أو ضمنا، في صورة واعية أو غير واعية، مقولة التراكم المعرفي، التي يستند عليها كثيرا في الحقول العلمية المهتمة بتاريخ المعرفة الإنسانية. والمقولة من البدهية؛ بحيث إن تحيينها كل مرة، واستحضارها في إطار المحاجة لصالح أطروحة من الأطاريح المتعلقة بالتراث، يدعو إلى الاستغراب المشوب بالسخرية، أكثر مما يدعو إلى تحسس الجد والصرامة في تتبع غوامض القضية ودقائقها. فالتراث ليس كتلة من العناصر المتجانسة، يمكن تمييزها، وضبط عنوانها الأكبر وعناوينها الصغرى. كما أن هذا التراث عندما يوضع على طاولة البحث والتحليل في حالته المتزامنة، يتكشف لنا عن تنوع واختلاف وتباين في القيمة العلمية لإسهامات أعلامه وأطروحاتهم. يقودنا هذا إلى القول: إذا كان إنتاج القدماء في اللحظة التاريخية الواحدة قابلا لأن يوصف بأنه نتاج التراكم المعرفي، فما بالك به في العصور المتطاولة المتعاقبة؟ هل يتصور عاقل أن أسلافنا توقفوا عن إغناء التراث بمراجعاتهم وإضافاتهم في عصر من العصور.

للمثيل من نظرية البلاغة الجديدة، يكفي أن نشير إشارة خاطفة إلى أن صاحبها استلهما تراث أرسطو، وقاما بدمج بعض عناصره وإعادة تشكيلها، ولم يجد حرجا في مناكفة ديكرات؛ صاحب الفلسفة العقلية الصارمة، واستبعاد أطروحته الذي يعتد به أيما اعتداد في تاريخ الفلسفة الغربية.⁽⁵⁾

وفي تراثنا العربي، نجد علما مثل عبد القاهر الجرجاني يقف من تراث أسلافه موقف المعتز؛ يستحضر آراء أعلامه، وينافح عنهم، غير مبال بمذاهبهم،⁽⁶⁾ لكنه لا يجد حرجا في تصحيح أخطائهم التي لم يتح لهم الأفق المعرفي في عصورهم أن يتجنبوها؛ فرأيناه، مثلا، يخالف جمهور البلاغيين والنقاد، وما تقرر في عمود الشعر العربي، عندما يذهب إلى تفضيل الاستعارة على التشبيه، ويقول بجمالية الغرابة مسقفا مقولة الوضوح، ويهدم تصور فصاحة اللفظ... إلخ.⁽⁷⁾

• التراث ومقولة القطيعة المعرفية:

غالبا ما تثار قضية القطيعة المعرفية، وتقدم تقدما سلبيا في إطار الدفاع عن التراث في مواجهة من يظن أنهم أعداؤه.⁽⁸⁾ والعارف بأصول العلم والمعرفة، المطلع على الأطروحات في مظانها الموثوق بها، يعلم أن هذا المفهوم تعرض للتشويه، وسوء الاستخدام. فالمعروف عن هذا المفهوم أنه من اجترار عالم المعرفة الفيلسوف غاستون باشلار، وأن من مدلولاته عنده أن "أي معرفة، مكتسبة بواسطة جهد علمي، عرضة للتهوي. فالسؤال المجرد الصريح يتآكل، والجواب الملموس يبقى. وعندئذ يتراجع النشاط الذهني ويتعطل. العائق الإستمولوجي ينعز في المعرفة غير المراجعة. والعادات الفكرية التي كانت صالحة ومفيدة يمكن، مع طول الزمن، أن [تتحول] إلى إعاقه البحث. ينجح الذهن البشري غالبا، حسب برغسون، بقوة، إلى اعتبار الفكرة، التي دأب على استخدامها، أوضح من غيرها... على هذا النحو تكتسب هذه الفكرة وضوحا جوهريا مفرطا".⁽⁹⁾

ومن هذا المنظور العلمي الصرف، لا تكون القطيعة المعرفية إلا ضرورة من الضرورات التي يتطلبها تطور المعرفة البشرية؛ لأننا لا نتحدث عنها إلا عندما يصل بحث القضايا المعرفية إلى مأزق، وتصبح المعرفة المتراكمة، في لحظة تاريخية ما، غير قابلة لمزيد من التراكم ضمن مقاربات وقواعد بحث وتحليل استنفدت أغراضها، ولم تعد مُنتجة. تمثل لما تقدم من نظرية البلاغة الجديدة بالتجاوز الذي اقترحته هذه النظرية لتصور الوجوه البلاغية ووظيفتها؛ فبعد أن تبين لجمهور المختصين أن الولع بالتزيين اللفظي، وحصر وظيفة الأساليب البلاغية في الإثارة الانفعالية المخدرة للوعي، وما تبع ذلك من تطبيقات في الخطابات الإيديولوجية والدينية المدمرة⁽¹⁰⁾... بعد كل ذلك كان على البلاغة الجديدة أن تصالح بين الحجاج (الإقناع) والتخييل (الإمتاع)؛ بأن تقترح تصنيفاً آخر جديداً يدمج الوجوه البلاغية ضمن آليات الحجاج الأخرى، كما فعلت - على سبيل المثال - مع ضروب المجاز التشبيهي، عندما أدرجته ضمن الحجج القائمة على المماثلة.⁽¹¹⁾

في تراثنا العربي، يمكننا استحضار المأزق المعرفي الناتج عن تحريم الاشتغال بعلم الكلام عند أهل السنة والجماعة، وما استتبعه من تراكم للقضايا المتروكة دون إجابة عند أتباع هذه الفرقة؛ مما حتم عليها، في النهاية، أن تتحدث قطيعة مع مفهوم يمتزج فيه الاعتقاد الديني الدوغمائي الذي ترسخ عبر قرون، بالموقف الفكري الإيديولوجي الضامن لخصوصية النظر العقلي الملزم بأولوية النص على العقل.^(*)

● التراث يغتني بالإضافات والمراجعات:

كدنا فيما تقدم أن نقول بالاقتران السبي بين القطيعة المعرفية وتطور العلوم والمعارف. هذا صحيح إجمالاً في نشوء النظريات بعضها على أنقاض بعض، لكن إمكانية تطوير المعرفة خارج هذا الإطار قائمة، حتى ضمن النظرية الواحدة، التي عادة ما تنشأ ضعيفة، وتأخذ في اكتساب عناصر القوة شيئاً فشيئاً، إلى أن يكتمل تكوينها، فتجابه المآزق التي تؤذن بنهايتها.

إن التراث يغتني بإضافات ومراجعات. يمكننا أن نعدّ إضافات التحسين والتطوير اللذين تنجزهما مساهمات الأعلام المختصين ضمن السيرورة الطبيعية لنشأة النظريات وتطورها إلى غاية اكتمالها. ويمكننا وفقاً لنفس التصور أن نعد مراجعات نوعاً من الإضافات النوعية التي يتحمل أعباءها عادة أعلام عظام عباقرة، يقدمون إسهامات علمية ومعرفية تساعد على تجاوز المآزق؛ بتجديدهم لمنطلقات البحث، وأدواته، ومناهجه.

للتمثيل من نظرية البلاغة الجديدة، نستشهد بقول فيليب بروتون في سياق تعرضه لتطور الدراسات المعاصرة للبلاغة: "في الفترة نفسها (الخمسينيات من القرن الماضي)، تولى رجل القانون وفيلسوف الحقوق شيم بيرلمان المنافحة عن التراث وإغناءه، وهو يدشن مشغل "البلاغة الجديدة"... إننا مدينون لبيرلمان بتجديد حقيقي للاهتمام بالحجاج"⁽¹²⁾؛ فهو يرى أن المراجعة الشاملة، التي قام بها الباحثان للموروث البلاغي الغربي، أتاحت لهما تشخيص الأدواء التي قعدت بالبلاغة عن أداء دورها؛ فكانت خطتهما، لإعادة الاعتبار للبلاغة، تقضي بإدخال تعديلات جذرية على المنطلقات التصورية، وعلى منهج الدراسة، وعلى آليات البحث والتحليل، متسلحين بمعرفة واسعة، شملت معظم العلوم الإنسانية المتاحة في العصر الحديث.

في تراثنا العربي أمثلة كثيرة عن تلك الإضافات والمراجعات الكبرى. فقد شاعت في حقل النقد الأدبي القديم مقولة أفضلية القديم، التي رسختها اشتراطات معرفية ودينية وإيديولوجية معينة في سياق تاريخي، لعب فيه الشعر العربي دورا مركزيا في تلقي النص المقدس (القرآن الكريم).⁽¹³⁾ وعندما تغير السياق التاريخي، وأخذت الساحة الثقافية تعني بأنماط مختلفة من النصوص والخطابات، تمت المراجعة الجذرية لهذه المقولة؛ بدءا من ابن قتيبة والجاحظ، وصولا إلى القاضي أبي الحسن الجرجاني، الذي لم يجد حرجا في كشف أغلاط الجاهليين في المعجم والتركيب والدلالة.⁽¹⁴⁾

• التراث متعدد متنوع:

من البديهيات المعنى عليها، في شأن التراث، أن هذا التراث متعدد متنوع، بل ومختلف في محمولاته ومكوناته. ولا أدل على هذه التعمية من أن أصحاب القراءة الإيديولوجية التبجيلية لا يكتفون بإدانة مقاربات المعاصرين التي يختلفون معها، بل يذهبون إلى حد الحكم النهائي والحاسم بفساد أطروحات بعض القدماء ونظرياتهم وآرائهم، وأحيانا يبلغ الغلو بهم، في الحجر على حرية الفكر والبحث، حد تحريم الاشتغال بضروب من العلم والمعرفة، يشهد الداني والقاصي بالبداهة أنها هي التي أنارت للبشرية طريق العلم والحضارة، وساعدت الجماعات البشرية على الارتقاء في تدبير شؤون معاشها، والقيام بوظائف الحياة الفردية والجماعية في الميادين كافة. يقول جابر عصفور: "كانت النزعة الماضوية نزعة شاملة في غلبتها على الفكر العربي وإبداعاته، نتيجة لعوامل متعددة: سياسية واجتماعية وفكرية ودينية واقتصادية وأنثروبولوجية. وكما كانت العوامل المؤدية إلى سيطرة هذه النزعة متضافرة متآزرة...، كانت تجلياتها متوازية متجاوبة... وذلك بالقدر الذي لا يمكن أن نفصل به مذهب القدماء في الأدب عن مذهب أهل النقل والاتباع، وهو المذهب الذي تصدى أصحابه لمذهب المحدثين الذين لا يمكن فصلهم، بدورهم، عن تيارات الاعتزال الكلامي والمذاهب الفلسفية الواعدة."⁽¹⁵⁾ ونتج ذلك منع كل الحقول المعرفية من الاستفادة الطبيعية من تراكم المعرفة، وتطوير مناظيرها باستمرار، ما عدا استثناءات، تمرر أصحابها؛ فكان مصيرهم العزل والتشيع وعقوبات أخرى.

إن هذا المنظور المؤطر علميا، المستند إلى التصورات الأشد أولوية، وإلى قوانين الفكر الأشد كلية، هو الذي يتيح لدارس التراث أن يتفاعل معه تفاعلا إيجابيا، لا يعطل حركية الفكر، ولا يمنعه من فرز العناصر الحية المغنية في التراث، وعزل العناصر المتكلسة الكابحة لحركة الفكر المتوجهة باستمرار نحو مزيد من بلورة المفاهيم وتدقيقها، لمطابقة المعيش المتجدد بكافة صوره وميادينه، مع معادله الموضوعي من الفكر النير، والعلم المتبصر، في إطار جدلية الوعي والتاريخ. يحضرنا في هذا الصدد، وفق الإجراء المتبع في هذا المبحث الاستهلاكي، مثال نستقيه من نظرية البلاغة الجديدة، يتعلق بالتنوع والثراء والاختلاف، بوصفها سمات جوهرية للموروث البلاغي الغربي؛ فلم يعق هذا المعطى الباحثين بيرلمان وتتيكا، عن حسن تمييز ما يتواءم مع مشروعهما التنظيري، حينما راحا يفحصان أطروحات القدماء المتصلة بالموقف من البلاغة، وانتهيا إلى تركيب جمع ما يشبه المتناقضات، وهو الجمع بين الحجاج والبلاغة.⁽¹⁶⁾ وما كان ذلك ليُتاح لهما، لو كانا متحيزين لنظرة متصلبة، لا ترى في هذا التراث التنوع والثراء والاختلاف، ولا تملك التبصر المعرفي

الذي يؤهلها لصهر عناصر التراث، وإعادة تشكيلها، وإضافة إليها؛ لتلبية حاجات مستجدة وجدت في عصرهما، ولم تخطر ببال المتقدمين من أسلافهما.

وإذا كان لا بد لنا من أن نمثل لهذه المقدمة النظرية من تراثنا، فلنستحضر فقط ما يشيع في أوساط واسعة من المهتمين بالتراث، من نظرة دونية إلى قسم كبير من تراثنا، تعذر على القدماء، لظروف معينة، أن يستوعبوه، ويتفاعلوا معه؛ فلنستحضر ذلك، ولنطرح السؤال الإنكاري التالي: أيعقل أن يظل هذا التراث، المتمثل في أطروحات لغوية وبلاغية وكلامية وفلسفية، مستبعدا، مغضوبا عليه، في زمن يشهد كل ما فيه أنها كانت الأوجه والأصوب في زمانها من نظيراتها المعتمدة تحت قوة القهر الرمزي والفعلي للجماعات المهيمنة في مراحل التاريخ الماضية؟

نظرية البلاغة الجديدة واستلهاام التراث الغربي:

اخترنا العنوان، وصغناه هذه الصياغة، لندمج في أفق التلقي المفترض لخطابنا هذا فكرة مؤداها أننا، في تفاعلنا مع الآخر الغربي، لا نكتفي بأخذ المفاهيم والمعارف الناجزة، بقدر ما يمكننا أن نستفيد من منجزاته في الجانب المتصل بأخلاقيات البحث العلمي، واشتراطاته المتصلة بتنفيذ المقولات التي تعرضنا لها سابقا؛ مثل: التراكم المعرفي، والقطيعة المعرفية بمعناها العلمي الإيجابي، والاستفادة من نماذج المراجعات التراثية الكبرى في تراثنا وفي غيره من التراثات، فضلا عن استثمار ثراء التراث وتنوعه في بناء نظريات قادرة على بعث الثقافة العربية عموما، وتجديد الاشتغال، المجتهد الملتزم المنتج، بضروب المعرفة المختلفة، التي لم يتأخر أسلافنا، بمختلف تصنيفاتهم، عن الإبداع فيها، وتطويرها.

قد لا يوجد، في النظريات الفلسفية واللغوية والنقدية، نظرية مخفزة على التفاعل مع الثقافة الغربية؛ مثل نظرية البلاغة الجديدة، ونبرر نعت التحفيز، الذي ألصقناه بهذه النظرية، بمزايا تنفرد بها، لا نجدها في غيرها من النظريات؛ فهي نظرية جادة في محاوره التراث، بصورة يجتمع فيها الاعتراف بهذا التراث وتثمينه، مع استحضار يكاد يكون شاملا لمنجزاته عبر العصور، مضموما إليهما الحرص على حسن تمثيل مكونات هذا التراث، وفرزها، وتجهيتها للدمج في نظرية تواصل الأخذ بما تقرر في التراث البلاغي القديم من قوانين وقواعد لم تفقد وجاهتها، وتطعمها بتصنيفات مفاهيمية، وقواعد اشتغال فرضها ما استجد في العصور الحديثة من أنماط التواصل الخطابية المختلفة، القائمة على وسائط أنتجها التطور العلمي والتكنولوجي، كم أنتجتها الأطر الاجتماعية المتولدة عن التغير الاجتماعي.

يعزز هذا الكلام ما نجده من شغف واهتمام كبيرين عند الباحثين العرب المعاصرين الذين تفاعلوا مع هذه النظرية؛ بسبب ما أحاط بعملية تلقيها من ظروف إيجابية مخفزة ومغرية؛ فكان المسار الذي سار فيه بعضهم واضحا، وهم ينطلقون دون الاصطدام بإحراجات كبيرة، إلى تأطير دراساتهم البلاغية الحجاجية، اعتمادا على هاجس التأصيل، وتحديد التراث الذي سبق الحديث عنه. فأمينه الدهري مثلا تبرر اعتمادها لنظرية البلاغة الجديدة بقولها: "...كون كل من البلاغة الجديدة، وجزء كبير من البلاغة العربية، التي تصدر عنها النصوص المزمع دراستها، يحملان في عمقهما هاجس إعادة قراءة التراث البلاغي اليوناني والروماني، وإضافات ما تلاهما من تراكمات في المجال... قصدية التطوير الموجهة هذه، تقابلها الإفادة من الإرث الأرسطي من قبل البلاغيين العرب، وخصوصا ما تعلق بألية المقايسة، ونظريتي التحديد والقياس والقوانين الاستدلالية، باعتبار بعضها وسائل مؤدية إلى المعرفة الصحيحة".⁽¹⁷⁾

● استلهم أرسطو، والاعتراض على ديكارت:

يكشف الباحثان بيرلمان وتتيكا، منذ الأسطر الأولى لكتابهما، عن اختيارهما استلهم التراث الغربي الأقدم، وهما بصدد التأسيس المعرفي لنظريتهما؛ فيعمدان إلى إحياء البلاغة والجدل الأرسطيين، اللذين يمثلان، في نظرهما، مقارنة لمسألة إنتاج المعرفة وتداولها والانتفاع بها بين البشر، أصوب رؤية من المفهوم الذي أقره ديكارت للعقل والاستدلال العقلي، والذي هيمن على التفكير الأوربي حتى منتصف القرن العشرين.⁽¹⁸⁾ ويجد هذا الاختيار تبريره في أن ديكارت يحصر المعرفة في حقل العلوم البحتة التي تعتدّ بالبرهان العقلي القاطع، في حين يجمع أرسطو بين دراسة هذه البراهين العقلية والأدلة الظنية؛ إذ خصص للأولى كتابه "التحليلات Analytiques"، وأفرد للثانية ثلاثة كتب هي: "الطويقا" أو "علم المواضع Topiques"، وكتاب "الخطابة"، وكتاب "التفنيدات السفسطائية"⁽¹⁹⁾، مستبعدين بذلك رأيا عزيزا على ديكارت، مؤداه أن الباحث "الذي يستلهم النموذج الديكارتي لا يطمئن إلا لدراسة الأدلة التي وصفها أرسطو بالتحليلية، وكل ما عداها من وسائل [استدلالية] فهي مرفوضة عنده؛ لأنها تفتقد طابع الإلزام."⁽²⁰⁾

ورغم تبنيهما الصريح لربط نظريتهما بالبلاغة والجدل الأرسطيين، فإنهما لا يغفلان عن تبيان درجة ارتباط كلٍّ من الحقلين بأطروحتهما الجديدة؛ فيوضحان أن ارتباط هذه الأطروحة بالبلاغة الأرسطية أقوى من ارتباطها بالجدل الأرسطي؛ إذ رغم أن تأسيسهما المعرفي لنظريتهما قام على تفضيل أرسطو؛ صاحب مزية الجمع بين دراسة البراهين (التحليلات) والحجج (المواضع)، على ديكارت الذي جرّد الحجج من كل قيمة معرفية.. رغم ذلك، فإنهما كانا أميل إلى ربط نظريتهما بالبلاغة الأرسطية أكثر من ربطها بالجدل الأرسطي على المستوى الاصطلاحي خاصة، ومن جملة الأسباب التي دفعتهما إلى ذلك الخشية من التباس مفهوم الجدل في أذهان الناس؛ لأن "مصطلح **جدل**" استخدم لقرون تسميةً لعلم المنطق ذاته. ومنذ هيجل، وتحت تأثير الاتجاهات الفلسفية المتأثرة به، اكتسب هذا المصطلح معنى مختلفا تماما عن معناه الأول، وهو المعنى الأكثر شيوعا في الاصطلاح الفلسفي المعاصر"⁽²¹⁾. هذا الالتباس لا يشوب استخدام مصطلح "**بلاغة**"، الذي غاب عن التداول زمنا طويلا، حتى إنّ موسوعة "اللاندا" الفلسفية المشهورة زهدت فيه، ولم تُشر إليه مطلقا.⁽²²⁾ وهذا، في الحقيقة، سببٌ آخر دفع الباحثين إلى رد الاعتبار له، بعد أن أهمل عند الفلاسفة المتأثرين بالنزعتين العلمية والوضعية، والذين نظروا إلى البلاغة نظرة ريبة واتهام، عندما تحولت إلى أداة للإيهام والتضليل؛ بسبب اتكائها المفرط على الزخارف اللفظية الفارغة، وعدم أهليتها لبناء المعرفة بناء صحيحا.⁽²³⁾

غير أن السبب الأهم في تفضيل البلاغة، وجعلها صنوا للجدل في تسمية النظرية ذاتها⁽²⁴⁾، هو أن البلاغة (=الخطابة) أكثر اتصالا بجانب التأثير في المتلقي (الجمهور)؛ فكونُ الجدل يعني بالآراء والأطروحات، التي تتفاوت درجة تبنيها لها؛ بسبب الخلفية المعرفية التخصصية العميقة لها، فإن الآراء التي يتقبلها معظم الناس، ويسهل إقناعهم بها؛ كما هو الحال مع جمهور الخطابة، الذي يتلقى الخطاب، ولا يرد عليه، هو ما يناسب معظم الخطابات المعاصرة التي تستهدفها نظرية البلاغة الجديدة.⁽²⁵⁾ وهنا يمكننا أن نلاحظ خصيصة بارزة في نظرية بيرلمان وتتيكا، وهي أنهما يُدرجان بمحمل تصورهما للبلاغة ضمن منظورٍ للبلاغة والحجاج يتقاطع مع منظور التلقي.⁽²⁶⁾

اختار الباحثان التأسيس المعرفي الأقدم باستلهام أرسطو، ومناكفة ديكارت، واتجها إلى البحث في الفلسفة الحديثة والمعاصرة عن حجج تقنع بوجاهة هذا الاختيار؛ فوضحا موقفهما من الأطروحة الديكارتية المفرطة في العقلانية، وكشفا ما فيها من ثغرات يتبين عند التحليل العميق أنها "لاعقلانية"؛ فبعد أن ألحّا إلى محاولات الاعتراض على عقلانية ديكارت عند عدد من الفلاسفة؛ مثل كانط وليبنز وبرغسون، راحا يقدمان أوجه اعتراضهما على أطروحة ديكارت، القاضية بأن ما تستقيم دراسته العلمية هي البراهين العقلية، دون غيرها من الاستدلالات الاحتمالية التي يختلف الناس في إدراكها بأذهانهم، ولا يهتمون بواسطتها إلى تصور الحقائق على نحو تام الوضوح. يقول ديكارت: "كلما اختلف شخصان في الحكم الذي يصدرانه على قضية ما، فإنه من المؤكد أن أحدهما يكون مخطئاً، بل، أبعد من ذلك، يمكن ألا يكون أي منهما يمتلك الحقيقة؛ فلو كان أحدهما ذا نظر سديد وثاقب للموضوع، لأمكنه أن يعرضه على صاحبه بحيث ينتهي إلى انتزاع موافقته".⁽²⁷⁾

وتوصل الباحثان، بعد مناقشة أطروحات ديكارت، إلى استنتاج مهم يؤسسان عليه اعتراضهما؛ فتبني هذه الأطروحات يؤول بنا إلى عدم الاعتراف بأي معرفة تُنتج خارج دائرة العلوم التجريدية كالرياضيات، والتجريبية كعلم الأحياء؛ مما يعني أن العلوم الإنسانية تصبح هرطقة ودجلا لا طائل تحته، وهو ما سيؤدّ أزمة تشكك في جدوى العلم ذاته؛ لأن تقييد إنتاج المعرفة بشرط الوضوح التام الملزم للعقل في الدليل، وبناء كل معرفة على الاستدلال المنطقي الصوري أو الرياضي، أو على الطرق الاستقرائية الاستنتاجية في العلوم التجريبية، سيدفع بنا إلى ترك الكثير من القضايا والمشكلات التي يحتاج الإنسان إلى دراستها، وحلها، والتوافق حولها، خارج دائرة البحث العلمي، والتناول المعرفي المعترف به.

يتساءل الباحثان بنبوة لا تخلو من الاعتراض: "هل ينبغي حيال التطور الذي أحرزه علم المنطق، والتقدم المؤكد الذي حققه، أن نخلص إلى الاقتناع بأن العقل عاجز تماما في الميادين التي يتعذر فيها الإحصاء... وأنه حيث لا تستطيع التجربة، ولا الاستنتاج المنطقي، تقديم حلول لمشكلة ما، هل ينبغي أن نستنتج أنه لم يبق أمامنا سوى الاستسلام لقوى اللاعقلانية والغرائز والتخمينات والعنف؟"⁽²⁸⁾.

لا سبيل إلى حلّ هذا الإشكال، في نظر الباحثين، إلا بإحياء المقاربة الأرسطية التي فرّقت بين حقلين من المعرفة، دون أن تلغي أيّا منهما؛ فحقل البراهين هو مجال العلوم البحتة؛ حيث الدليل الملزم والمعرفة الواضحة والعقل المدعّن، وحقل الحجج والأدلة الظنية هو ميدان العلوم الإنسانية؛ حيث يسود الدليل الاحتمالي المرجّح والمعرفة المتعددة المتكشّرة والعقل المتمتع بالاختيار. ولا ينسى الباحثان، في هذا السياق، الإشادة بالتطور الذي أحرزته بعض الدراسات الفلسفية والمنطقية⁽²⁹⁾، والتي أتاحت أن تدرس جنبا إلى جنب -³⁰ كما فعل أرسطو قديما - الاستدلالات التي تحيل إلى الحقيقة، وتلك التي تؤول إلى تبني المواقف غير الملزمة فقط.

● تجاوز البلاغة الغربية القديمة:

يدل عنوان كتاب بيرلمان وتتيكا، أول ما يدل، على سعيه لبناء مفهوم جديد للبلاغة يتجاوز به قصور البلاغة الغربية التقليدية، التي ارتبطت أكثر ما ارتبطت بالخطابة، بوصفها حقلا موضوعه، "قبل كل شيء، فن مخاطبة

الجمهور بطريقة إقناعية؛ فهي تعنى باستخدام اللغة شفويا، وإلقاء الخطاب أمام جمع من الناس محتشدين في الساحة العمومية؛ بهدف استمالتهم لتبني الأطروحة المقدمة إليهم" (31).. هذا التحديد الحصري لمفهوم البلاغة هو أول ما يطّرحه الباحثان جانبا، ويقترحان بديلا له مفهوما كليا يُفضي إلى فهم آليات اشتغال الفكر الإنساني أثناء التواصل، لا مجرد تعليم قواعد الفصاحة، وكيفية ممارستها أمام الجمهور (32)؛ فبلاغة بيرلمان وتتيكا تتجه إلى دراسة بنية الحجاج في الخطاب، ولا تُعنى بطرق الأداء أثناء التواصل (33). يقول فيليب بروتون معلقا على ذلك: "لا يوجد ما يفاجئ عندما لا يهتم بيرلمان، هنا، من البلاغة القديمة إلا بالجزء الخاص بالاكشاف (الإيجاد عند العمري)، وأن يتجاهل بجرة قلم... كل ما يتعلق بالتجمل (Elocutio)، وأكثر من ذلك بالحدث (Actio)، والتذكر (Memoria). وحتى عندما يهتم بالبناء (Dispositio)، فإنه لا يلقي بالا إلا لقيمة طريقة عرض الحجج ذاتها في الحجاج" (34). وعليه، فالخطابة، بالمفهوم التقليدي، ليست الموضوع الحصري الأثير لبلاغتهما الجديدة، بل إن الاهتمام بها ليتوارى، ويقل حظه، قياسا لما ستحظى به أشكال مختلفة من التواصل المعتمد على الكتابة التي لا تشترط وجودا حسيا للمخاطبين، حتى إنهما لا يُقَصِّيان من دائرة الخطابات الجديدة بالدراسة البلاغية الحجاجية حديث الذات عندما يأخذ شكل المداولة. فلا مزية عندهما لنص أو خطاب بحسب الجنس الذي ينتمي إليه، أو لطوله أو قصره، أو غيرها من الاعتبارات؛ فمدار الاهتمام كله هو حمولته الحجاجية (35).

وبالمقابل، يحتفظ الباحثان من البلاغة التقليدية بمفهوم "الجمهور"، غير أنهما يتبّهان إلى الوهم الذي ظل مسيطرا على الكثيرين، الذين اعتقدوا أن النصوص المكتوبة ليس لها جمهور. يقول الباحثان: "كل خطاب يتوجه إلى جمهور، لكننا ننسى غالبا أن ذلك يصدق أيضا على النصوص؛ فبينما يُبْنَى الخطاب بمراعاة نوع الجمهور، يوهم الغياب المادي للقراء الكاتب بأنه وحده في العالم، رغم أن نصه محكوم دائما، شعوريا أو لاشعوريا، بهؤلاء الذين يفترض أنه يخاطبهم" (36)*.

يستتبع هذا التصحيح لمفهوم "الجمهور" عند الباحثين تغيرا في إحالته الدلالية؛ فالجمهور لم يعد مشكّلا من العوام الذين يسهل الوصول إلى استمالتهم فقط، دون بذل جهد في التحقيق العلمي لمضامين الخطابات، بل إن الحجاج، بحكم تعدد مواقفه ومقاماته، وميادين التخصص التي يمارس فيها، أصبح أدعى إلى أن يفرض على الباحث أن يأخذ في الحسبان نوعية المتلقين الذين يراد إقناعهم (37)، وعليه يمكننا أن نخلص، مما تقدم، إلى القول إن بلاغة بيرلمان وتتيكا، رغم إخلاصها الولاء للبلاغة الأرسطية، وصلتها القوية بالبلاغة الغربية القديمة، فإنها تختلف عنهما معا، من ناحيتين؛ "أولاهما نوع الجمهور، وثانيتهما نوع الخطاب. فلئن كان جمهور الخطابة حاضرا أمام الخطيب في فضاء مكاني محدد، فإن جمهور الحجاج متعدد متنوع يمكن أن يكون حاضرا، كما يمكن أن يكون غائبا؛ على نحو ما قلنا في الكتابة مثلا (...). أما من جهة نوع الخطاب، فإن الحجاج يكون تلفظا شفويا أمام سامعين، مثلما يكون مكتوبا مقروءا متداولًا بين جماعة المعنيين به" (38).

هكذا، لا يبقى من البلاغة التقليدية، في تصور بيرلمان وتتيكا، إلا التسميات التي أتينا على ذكرها؛ فهي بلاغة، ولكنها ليست بلاغة الخطابة حصرا. وهو "جمهور"، لكنه ليس الجمهور الذي يحتشد في الساحة لزما.

• بحث الحياة في بلاغة الوجوه البائدة:

بيننا في ما تقدم أن الباحثين يستلهمان الموروث البلاغي، بشقيه الأقدم (الأرسطي)، والأقل قدما (بلاغة الوجوه الكلاسيكية)، دون أن يعني الاستلهام عندهما التقليد بأي درجة من الدرجات. فكما أعاد صهر المادة المفهومية المتصلة ببلاغة الخطابة، ويُعدّها الحجاجي، التي أخذها من المصدر اليوناني القديم، راحا يعالجان الإرث المفهومي العائد إلى بلاغة الوجوه الكلاسيكية، غير عابئين بصعوبة المغامرة في ميدان كان، إلى سنوات قريبة، منبوذا ومستبعدا ومتهما بأشنع التهم.

1_ إرث بلاغة الوجوه، وإعادة تأهيله حجاجيا:

كيف تصرفا (تصرف) الباحثان إجرائيا، وهما يباشران سيرورة إعادة الاعتبار لبلاغة الوجوه المندثرة؟ وكيف مكنا العناصر الحية من الانبعث من تحت الرماد؟

لابد لنا أن نذكر هنا - قبل محاولة الإجابة - بتعريف الحجاج عند الباحثين، الوارد في مقدمة كتابهما، ونصّه أنه "مجموع التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة أو زيادة موافقة الأذهان مع الأطروحات التي تعرض عليها بهدف تقبلها"⁽³⁹⁾. نتبين في نص هذا التعريف أن بؤرة الاهتمام، عند بيرلمان وتيكا، هي البحث في التقنيات الخطابية التي تتوسل بها مختلف الحجج لإحداث التأثير في الأذهان، وحملها على الاقتناع أو استمالتها.⁽⁴⁰⁾ ومن ثم، يحق لنا - وقد استحضرنّا التعريف - أن نطرح السؤال التالي: هل يوجد ضمن هذه التقنيات الخطابية ما اصطلاح القدماء على تسميته بـ"الوجوه البلاغية" أو "الأشكال البلاغية" Figures de style؟ الجواب قد لا يكون بارزا صريحا في تعريف الحجاج، لكنه قد يكون ثابوا في تعريف الباحثين للحجة ذاته؛ فالحجة، بالنسبة إليهما، هي صورة خطابية (= تقنية خطابية) "يمكن تمييز شكلها بواسطة بنية خاصة بها [. . .]. إن صورة ما تكون حجاجية إذا كان استخدامها، الذي يحدث تغييرا في المنظور، يظهر عاديا بالنسبة للوضع الجديد المقترح. وعلى العكس، إذا لم تؤدّ الصورة إلى موافقة المتلقي، فإنها تكون حينئذ تجميلا؛ أي صورة أسلوبية فقط".⁽⁴¹⁾

تتضح الرؤية، وتتلور عناصر الإجابة عن سؤالينا السابقين أكثر، عندما نرجع إلى تصنيف الحجاج في فهرس المحتويات، وإحالاته إلى متن الكتاب حيث التفصيل والاستفاضة؛ فهما يدرجان الكثير من الأساليب البلاغية (البيانية والمعنوية والبديعية) ضمن التقنيات الخطابية المشار إليها في نص التعريف، أو إن شئنا الدقة قلنا: يمنحها إمكانية التحول إلى تقنيات خطابية حجاجية. ولقد "تبّه بيرلمان إلى أن أغلبية العناصر الأسلوبية؛ من نفي وشرط وتأكيد وعناصر بلاغية - بيانية ومعنوية وبديعية - وأدوات ربط وعطف Des modalités d'expression، ذات دور حجاجي كبير"⁽⁴²⁾، وكل ما يُعتدّ به في ذلك هو نجاح المتكلم في توظيفها بالطريقة التي تؤدي إلى تفعيل الدور الحجاجي، والعبرة هنا بتحقيق التأثير المخصوص في قناعات المتلقي إنشاء أو تقوية؛ فإن أنشئت لديه بواسطة الأسلوب البلاغي قناعة بأطروحة، أو زادت قناعاته بأطروحة موجودة سابقا لديه، غدت تلك الصورة تقنية حجاجية، وظلت محتفظة بجمالياتها في إطار تأديتها للوظيفة الجمالية.⁽⁴³⁾

ويتضح تصور بيرلمان وتتيكا لحجاجة الوجوه البلاغية أكثر، عندما نستحضر منظوره المنطقي غير الصوري، الذي يعترف للغة الطبيعية بمنطق قائم الذات. ونجد نموذجا من هذا التصور "في قوله: لكي يوجد شكل بلاغي، لا بد من توفر خاصيتين لا غنى عنهما؛ أن تكون له بنية يمكن فكّ نظامها بشكل مستقل عن المضمون؛ أي تكون له صيغة تتمثل طبقا للتمييز المنطقي الحديث في أحد المستويات النحوية أو الدلالية أو التداولية. وأن يتم استخدامه بحيث يتعد عن الصيغة العادية للتعبير؛ ومن ثم، يصبح لافتا للانتباه".⁽⁴⁴⁾

2_ حجاجية الوجه البلاغي في منظور البلاغة الجديدة:

لا نجد في مقدمة كتاب بيرلمان وتتيكا تفاصيل كافية عن موضوع حجاجية الوجوه البلاغية، لكننا نستطيع التقاط المضمّر الذي يوحى بذلك ويقرّه، عندما يعتبران، بوضوح، أن كل ما يتحقق به الاستدلال الحجاجي، المفضي إلى الإقناع أو الاقتناع من أساليب لغوية، يمثل، بالنسبة إليهما، تقنية خطابية يمكن استعمالها لممارسة الحجاج. يقول الباحثان: "لن تعنى أطروحتنا سوى بالأدوات الخطابية التي تؤدي إلى تحقيق موافقة الأذهان [على الأطروحات]. وعليه، لن نفحص لاحقا سوى التقنيات التي تتوسل بها اللغة من أجل الإقناع، والحمل على الاقتناع"⁽⁴⁵⁾؛ مقتضى هذا الكلام أن الأدوات الخطابية التي تتوسل بها اللغة تشمل بالضرورة الوجوه البلاغية، ما دامت هذه الوجوه تتجسد في بنيات لغوية، وهي - بطبيعة الحال - صنف من التعابير تندرج ضمنه نماذج لا حصر لها، يلجأ إلى استعمالها في الكلام العادي، بلّة الكلام المبالغ في تجويد صياغته، في حقل الأدب وسائر حقول المعرفة. وبذلك يحال القارئ - تحت إلحاح أفق الانتظار الذي ابتناه اعتمادا على التفاعل الأولي مع عنوان الكتاب، وعتبة مقدمته - إلى البحث في متن الكتاب، وعتباته الأخرى (فهرس المحتويات خاصة) للتزود بمزيد من الإضاءات المفهومية، التي من شأنها أن تساعد على قياس المسافة بين توقعه وبين ما يطرحه الباحثان من تصورات حول حجاجية الأساليب البلاغية، ومعرفة ما إذا كانت تؤدي دورا حجاجيا، وكيف تشتغل في حال أدائها هذا الدور.

لقد سبق لنا التعرف إلى نظرة بيرلمان وتتيكا العامة إلى الأساليب البلاغية، وإمكان تحويلها إلى تقنيات خطابية وفق شروط معينة. وبفحصنا فهرس المحتويات، نلمس الملامح الأولى لتفصيل هذه النظرة؛ فالعديد من أصناف الحجج (التقنيات الخطابية)، المسماة تسميات جديدة في كتابهما، تحيل - من بين ما تحيل عليه - إلى الكثير من الوجوه البلاغية. وللتمثيل نقف فيما يلي مع عرض موجز لمقاربة الباحثين لشكلين بلاغيين، هما: الاستشهاد، والمجاز الاستعاري.

أ) الاستشهاد: باعتباره إدراجا لأقوال الغير وأحكامه ومواقفه، يمكن تصنيف الاستشهاد، بأشكاله المختلفة، ضمن ما يسميه الباحثان "حجاج السلطة" (Argumentation par autorité)، الذي يضعه ضمن الصنف الأكبر (الحجج القائمة على بنية الواقع Arguments basés sur la structure du réel)، وتحت الصنف الفرعي (روابط الوجود المتزامن)⁽⁴⁶⁾ (Liaisons de coexistence). ويبين الباحثان أن هذا النوع من الحجج، التي تستعمل أفعال الأشخاص وأحكامهم للاستدلال على صحة الأطروحات، يتميز عن غيره من حجج النفوذ والاستعلاء بقابليته الشديدة للتوصيف والتحديد.⁽⁴⁷⁾

ويرى الباحثان أن "أنواع السلطة التي يمكن استدعاؤها [في الخطاب] شديدة التنوع؛ فأحيانا تكون "الرأي الجمع عليه" أو "الرأي العام"، وأحيانا تكون بعض فئات الناس؛ كـ"العلماء" و"الفلاسفة" و"رجال الكنيسة" و"الأنبياء"، وأحيانا أخرى تكون السلطة غير مشخصة؛ كـ"الفيزياء" أو "المذهب" أو "الدين" أو "الإنجيل"، وفي بعض الأحيان قد يتعلق الأمر بسلطات معينة بأسمائها".*(48)

وعليه، يمكننا أن نتصور يُيسر إمكان أن تتحول أشكال الاستشهاد البلاغي في اللغة العربية؛ كالاقتباس والتضمين والتلميح، إلى تقنيات خطابية تخدم الحجاج، وتشغل وفق شروطه ومقتضياته، على أنه ينبغي الإشارة إلى أن مفهوم الاستشهاد وحجة السلطة أوسع من أشكال الاستشهاد البلاغي؛ إذ إنه يشمل الأحكام والمواقف والعناصر السيرية التي تحكى، ولا تقتصر دلالاته على الأقوال المنسوبة إلى هؤلاء الأشخاص.

وفي ثقافتنا العربية، على سبيل المثال، اعتداد كبير بسلطة القدماء، وأولوية القديم على الحديث. لذلك يحتل الاستشهاد بأقوالهم الصدارة في الاحتجاج للآراء والأطروحات، أو في تفنيدها. و"يستمد هذا النوع قوته الحجاجية من نموذجية القدماء، بوصفهم روادا وأقطابا وشيوخا؛ فهم أعلى مرتبة من المتأخرين؛ لأنهم هم الذين يعرفون الحق.. إنهم السلف الصالح - كما تعبر عنه النصوص العربية - الذي يستمد نموذجيته من نموذجية المرحلة التاريخية التي ينتمي إليها"⁽⁴⁹⁾، وهو ما لا يزال يثير جدلا شديدا بين طوائف المثقفين العرب؛ بسبب الاختلاف في تقدير القيمة الحجاجية لهذا القديم، بما فيه النصان المقدسان: القرآن الكريم والحديث الشريف.

ب) المجاز: يُعَدُّ بيرلمان وتيكا المجاز القائم على المشابهة (عندهما المماثلة⁽⁵⁰⁾) شكلا من أشكال "المماثلة المكثفة" *Analogie condensée*. ف"المجاز الاستعاري، في المنظور الحجاجي، هو مماثلة مكثفة ناتجة عن دمج عنصر من المثل مع عنصر من الموضوع"⁽⁵¹⁾. وعليه يمكن رد الاستعارة، وبعض أنواع التشبيه (التمثيلي والضماني خاصة) في صنفه الحجج التي يقترحها، إلى ما يسميانه "الاستدلال بالمماثلة"، وهو صنف فرعي يضم المجاز إلى جانب المثال والنموذج والتبيين، ويدخل ضمن صنف أعلى، هو (الأدلة التي تؤسس بنية الواقع *Les raisons qui fondent la structure du réel*)⁽⁵²⁾.

ومن بين الأمثلة التي يضر بها الباحثان، عند تناولهما للمجاز، المثال التالي، المأخوذ من "نص إبيكتت" Epictète: "عندما يضع طفل يده في قارورة ضيقة الفتحة لكي يأخذ بعض التين والجوز، ثم يملأ يده، فماذا سيحدث له؟ لن يستطيع إخراجها، وسيشعر في البكاء. سنقول له: اترك بعض ما في يدك، وستتمكن من إخراجها. وأنت عليك فعل ذات الأمر بالنسبة لرغباتك. تمّن قليلا من الأشياء، وستحصل عليه."⁽⁵³⁾

واضح في هذه المماثلة مطابقتها للتشبيه التمثيلي؛ حيث توافرت جميع أركانه، ولاسيما الأداة ممثلة في العبارة الحاملة لمعنى التشبيه "وأنت عليك فعل ذات الأمر"؛ أي: مثلما فعل الطفل في "صورة المشبه به"، ووجه الشبه "الصورة المأخوذة من متعدد: الاكتفاء بالقليل من الكثير المرغوب فيه للحصول عليه".

وإذا تجاوزنا هذا التقريب الذي يقيمه الباحثان بين المجاز الاستعاري والمماثلة، إلى تقديرهما للإضافة التي يمكن أن يقدمها التحليل الحجاجي للمجاز، وجدناهما يثمنان هذا التحليل، ويعتبرانه الأجدى في دراسة الصورة المجازية؛ فهما يعتقدان أن "الدور الحجاجي للمجاز لا يفسر [في نظرية]، كما يفسر من خلال نظرية الحجاج"⁽⁵⁴⁾.

3_ التقدير الجمالي للوجوه البلاغية بين البلاغة والحجاج:

يقتضي مقام التلقي الذي نحن فيه، إلى حد الآن، ألا نتوقع من أطروحة فلسفية في البلاغة والحجاج أن تعنى كثيرا بالجانب الجمالي، لاسيما إذا كان صاحبها قد بذل جهدا كبيرا في إثبات علمية مقارنتهما للفعل البلاغي الذي يمارس من خلاله الحجاج، وسعيًا سعيًا دؤوبا للرد على أطروحات ديكرت التي تجرد كل بحث من صفته العلمية ما لم يعتمد على البرهنة العقلية الصارمة. فأين من أفق انتظارنا هذا، ما جاء به الباحثان في مسألة تقدير القيمة الجمالية من منظور بلاغة الحجاج أو حجاج البلاغة؟

لا يقدم الباحثان جوابا مباشرا عن هذا السؤال في مقدمة كتابهما، بل يكتفيان بتوضيحات عامة في متن الكتاب عندما يعرضان للأساليب البلاغية بوصفها تقنيات حجاجية. فالقيمة الجمالية، بما هي حصيلة التأثير الوجداني الخالص، الناتج عن استخدام مخصوص للوسائل اللغوية، لا يعنى بها في التحليل الحجاجي الذي يدعوان إليه؛ لأن ما يشغل بالهما، في إطار التنظير لبلاغة جديدة، هو دراسة الاستدلال العقلي القائم على فحص خطابات الحجاج بعد تنفيذها في مقامات تواصلية حقيقية أو افتراضية، ولا يضيرهما، بعد ذلك، أن تتطابق التقنية الخطابية مع الأسلوب البلاغي، أو أن يكونا متفارقين.⁽⁵⁵⁾

وإذا علمنا أن الباحثين، في سعيهما لرد الاعتبار للبلاغة، واجها أيضا اعتراضات تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، تتمحور حول رفض البلاغة في حقل الدراسات الأدبية والنقدية؛ لسقوطها في التكلف اللفظي والزخرفة والتنميق الذي يتعارض مع صعود نجم العقلانية، وتحرر الفكر في هذه المرحلة التاريخية، تبينت لنا وجهة المسعى الذي قاما به من أجل رد الاعتبار للبلاغة. يقول فيليب بروتون: "على غرار رولان بارت يرى أوليفي روبول، وخاصة شيم بيرلمان في الديكارتية، وفي رفضها للمحتمل "مصدر متاعب البلاغة، ومعاناتها في إيجاد مكان مركزي لها ضمن أنظمة التفكير المعاصرة. وبصورة عامة، يمكننا وصف هذه المرحلة بكونها مرحلة مواجهة بين "ثقافة الوضوح" المستفيدة عهدئذٍ من إنجازات العلوم والوضعية، وثقافة الحجاج "التي أعاق تجدها تشكيك تبين لاحقا أنها منه براء؛ لأنه تشكيك يعترض على الطابع "الجمالي" للخطاب".⁽⁵⁶⁾

إذا فالمسألة المطروحة عند الباحثين ليست الرفض المطلق للمقاربة الجمالية، بل هو تحفظ على إغراق أصحابها في الاعتداد بالتأثير الجمالي، واعتباره العامل الحاسم في إثارة اهتمام المتلقي. يقول بيرلمان، في كتابه "حقل الحجاج"، معلقا على أطروحات ج. كوهن (التفريق بين المجاز التوضيحي والمجاز الانفعالي)، وأوغدن وريتشاردز (التفريق بين المعنى الحرفي والمعنى الإيحائي): "إذا أمكن لهذه الأطروحة أن تبدو مُعْرية، فإني أرى فيها احتزالا للظاهرة؛ ذلك لأنها تتجاهل ما تدين به السيرورة المجازية غالبا للمماثلة الشاوية [في جسم الخطاب]، والتي تحتاج إعادة بنائها عند القارئ إلى استنفار قدرات فكرية وإبداعية".⁽⁵⁷⁾

وبهذا يتضح، بدرجة أكبر، أن بيرلمان، رغم منطلقاته الفلسفية، ونزوعه المنطقي غير الصوري المعلن، لا ينكر الأثر الجمالي للوجوه البلاغية، بل نراه يؤكد، ويقوّيه باقتراح دمج مع الأثر الحجاجي، الذي يرى فيه ضمانا لابتعاد الخطاب عن الابتذال الزخرفي، وعن السقوط في وهدة التكلف الذي قد يخلب لبّ بعض المتلقين، ولكنه لن يساعدهم على تحرر ذواتهم، وانعتاقها فكريا وانفعاليا، وتكون حالهم أشبه بحال ذلك النوع من الجمهور الذي ذمّ بسببه أفلاطون الخطابة، والذي وجد فيه السفسطائيون ما يروج بضاعتهم الخطابية المغشوشة. يؤكد الباحثان هذا الموقف بقولهما: "إذا كان الكتاب الذين عُنوانوا بالصور [البلاغية] قد نزعوا إلى حصر نظرهم إليها في جانبها الأسلوبية فقط، فمرّد ذلك عندهم - في رأينا - إلى أن الصورة عندما تُنتزع من سياقها [المقامي]، وتوضع في آنية زهور، فإنها عندئذٍ تؤخذ بالضرورة في صورتها الأقل حجاجية. ولأجل الإمساك بهذا الجانب الحجاجي، ينبغي التمثل [الواعي] للانتقال من المألوف إلى غير المألوف، ثم العودة إلى مألوف من نوع آخر؛ مألوفٍ تؤسسه الحجة عندما يكتمل تلقيها".⁽⁵⁸⁾

على هذا المنوال، يبقى الباحثان وفيّين لمرجعيتهما الفلسفية، ولتطلباتها المنهجية، ويهيّئان للتكامل مع المناظير الجمالية التي يعتمدنها أصحاب البلاغات الأخرى ممّن يُعنون بالأسلوب عامة، وبأساليب اللغة الأدبية خاصة.

خلاصة:

تبين لنا في ما تقدم من مباحث أن التأسيس المعرفي لنظرية البلاغة الجديدة لـ"برلمان" و"تيكا" قد قام على تصور مبدئي، تمحور حول فكرة التحوار الجادّ والإيجابي مع التراث البلاغي الغربي في جملته؛ مما جعل واضعيها يواجهان رهانات بالغة الصعوبة، أهمها رهانان؛ الأول رهان الاستجابة لمتطلبات الحداثة في حقل تزامنت فيه النظريات التي تهتم بتحليل الخطاب، بمختلف مرجعياتها ومناهجها، والثاني رهان رد الاعتبار للبلاغة بعد أن تركز النظر إليها، منذ نهاية القرن التاسع عشر، بوصفها بمرجحا لفظيا، يصلح للإيهام والإيقاع بالمتلقين في شرك الدجل الإيديولوجي الديني والسياسي، أكثر مما يصلح لأي شيء آخر. وقد وُفق صاحبها هذه النظرية، من خلال كتابهما ذائع الصيت: "Traité de l'argumentation-La nouvelle rhétorique"، في تحقيق هذين الرهانين بأطروحة أقامها على استلهاه التراث؛ من خلال إحياء التمييز الأرسطي الإيجابي بين الحجاج والبرهان، واستئناف العمل به. وفي مقابل ذلك، اعترضوا على الرفض الديكارتي للمعرفة المنتجة خارج دائرة العلوم الاستدلالية الصارمة، وبينا محدوديته ومخاطره. وكان من نتائج هذا الفرز توسيع دائرة الخطابات التي يشملها التنظير البلاغي، لتستوعب كل الخطابات ذات البعد التواصلية النفعي. كما قاما، في ضوء هذا التبصر المعرفي، ببعث الحياة في التراث البلاغي الغربي الكلاسيكي؛ من خلال تسليط الضوء على الحمولة الحجاجية للأساليب البلاغية، وإعادة تصنيفها وفقا لذلك، ليدفعا عنها تهمة التكلف اللفظي التي ظلت ملتصقة بها زمنا طويلا. كما قام واضعا هذه النظرية بالتعديلات الضرورية التي تستدعيها مقامات التواصل في الحياة المعاصرة؛ فأكدوا البعد اللغوي الخاضع للخطاب، نائين بنظريتهما عن الانحصار في فن الخطابة؛ فلم يُعنيا بدراسة المؤثرات غير اللغوية؛ كالأشارات الجسمية، ونبرات الصوت، وملامح الوجه، وغيرها.

الهوامش:

¹ - الإشارة هنا إلى المعارك الفكرية التي خاضها دعاة الفكر النقدي المتنور منذ فجر النهضة العربية، أمثال رفاة الطهطاوي، ومحمد عبده، وعلي عبد الرزاق، وطه حسين، وأجيال أخرى سارت على دريهم. وهي معارك تذكرنا بمعارك دارت في القدم بين فريقين؛ سدة الفكر الاتباعي المؤدلج، والمفكرين العقلانيين الأحرار المنفتحين على الثقافات المختلفة، وأبرز ما يمثل المواجهة بين هذين الفريقين، الصراع بين الفكر المعتزلي وما ينضوي تحت الفكر السني الجماعي من فرق وجماعات.

² - يحضرنى مثالان بارزان: بارت وإيكو؛ فبارت - على سبيل المثال - يعيد كتابة تاريخ البلاغة، ساعيا إلى إعادة الاعتبار إليها. ومن جملة ما قاله في تتمين الموروث البلاغي الغربي: "هذا القدم لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة؛ فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد... إن العالم مليء، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة". (رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، د.ط، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص10).

أما إيكو، فزيادة على الدلالة الواضحة لعنوان كتابه على الاهتمام بالموروث الإنساني ككل في مجال السيميائيات، يبرز لنا مترجمه بدقة زاوية هذا الاهتمام بقوله: "... إنه يبحث في التراث السلوكي والذهني الذي خلفه الإنسان عن الأسس الفلسفية التي تحدّد كنه العلامة باعتبارها اللبنة الأساس في سيورة السيميوز (السيورة المنتجة للدلالات وتداولها). ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار هذا الكتاب تأريخا لرحلة الإنسان مع الرموز وأشكالها المتعددة، أو هو نتيجة لهذه الرحلة". (إمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2007، ص8). وهذا يصدق على مجمل النظريات المعاصرة في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية.

³ - هو جدير بالتأمل؛ لأنه ينسف من الأساس دعوى انقطاع الغرب عن ماضيه، وتكره لتراثه. وجدير بالافتداء؛ لأنه يقدم لنا، من الناحية المنهجية والبيداغوجية، نموذجا في التعاطي العلمي الواعي مع التراث.

⁴ - يتحكم هذا الاستقطاب الثنائي في معظم ما ينتج عندنا من نظريات وأطروحات، وهو ما يغيب الصوت الثالث. ويصف أركون ذلك بالاستغراب، بوصفه مقابلا للاستشراق، ويجعله قسمين هما: "قسم مبهور بالغرب، وقسم رافض كلياً له. أما القسم المبهور، فمن خصائصه القبول الساذج بالأفكار الثورية الحديثة، وبتقنيات التعبير الأدبي، ثم بدرجة أكثر بمنجزات الحضارة المادية والتكنولوجية للغرب. أما القسم الآخر، فإنه يرفض، بكل قوة وشدة، حضارة بلا روح ولا أخلاق. هكذا نجد، في مقابل الأناية الثقافية للغربيين، اللعنات المؤدجلة للمسلمين". (ينظر: "محمد أركون: قراءات في القرآن"، ترجمة: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، 2017، ص108)

⁵ - سيأتي تفصيل ذلك تحت عنوان: استلهام أرسطو، والاعتراض على ديكرات لاحقا في هذا البحث.

⁶ - مثال ذلك موقفه من الجاحظ المعتزلي. ينظر ذلك في: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004، ص255-257.

⁷ - ينظر رأيه بالتفصيل، في: أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني، جدة، 1991، ص148، 43؛ والدلائل (م.س)، ص44-45.

⁸ - يحضرننا هنا مثال استثنائي، هو عبد العزيز حمودة، الذي يقول في سياق نقده لأطروحة جابر عصفور الحداثية: "... بالرغم من أن جابر عصفور يستدرك في جملته التالية، مؤكداً أن الحداثة "لا تعادي التقاليد بمعناها الإيجابي، بل تقيم معها علاقة حوارية"، إلا أن ذلك الاستدراك لا يقلل من أهمية "القطيعة المعرفية"، التي تتطلب التصفية الكاملة -وأنا هنا أعيد ترتيب كلماته فقط - للعناصر الثابتة، "التي تفرض نفسها على المكونات اللاواعية لهذا الوعي". ولا شك في أن تأكيد القطيعة المعرفية هنا يضع الدعوة إلى الأصالة والمعاصرة، التي ينادي بها الحداثيون العرب، في محاولة لتجميل التأثير الصريح بفكر الحداثة الوافد، في مأزق حقيقي..." (المرايا المحدبة: من النبوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، رقم 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل 1998، ص21).

⁹ - Gaston Bachelard (1934), La formation de l'esprit scientifique. Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective. Paris : Librairie philosophique J. VRIN, 5e édition, 1967. Collection : Bibliothèque des textes philosophiques, p17- 18.

" Une connaissance acquise par un effort scientifique peut elle-même décliner. La question abstraite et franche s'use : la réponse concrète reste. Dès lors, l'activité spirituelle s'invertit et se bloque. Un obstacle épistémologique s'incruste sur la connaissance non questionnée. Des habitudes intellectuelles qui furent utiles et saines peuvent, à la longue, entraver la recherche. «Notre esprit, dit justement M.Bergson a une irrésistible tendance à considérer comme plus Claire l'idée qui lui sert le plus souvent». L'idée gagne ainsi une clarté intrinsèque abusive".

¹⁰ - Christian PLANTIN: situation des études d'argumentation- de délégitimations en réinventions; in: L'argumentation aujourd'hui – Textes réunis par Marianne Doury et Sophie Moirand, éd presses Sorbonne nouvelle, Paris, 2004, p166-173

¹¹ - سياقي تفصيل ذلك لاحقا في هذا البحث، تحت عنوان: حجاجية الوجه البلاغي في منظور البلاغة الجديدة: (ب) المجاز * للأسف لم يتح لهذا التوجه أن ينتشر انتشارا واسعا في الساحة السنية؛ إذ يظل للتيار الأرثوذكسي الدوغمائي، المتمثل في الحنبلية الصارمة (الوهابية وأمثالها)، سطوته.

12 – Breton. Philippe: L'argumentation dans la communication, 3e éd, Pans La Découverte, 2003- (Repères, 204),p11

"Dans la même période, un juriste, philosophe du droit, entreprend d'assumer et de faire fructifier l'héritage : Chaïm Perelman met en chantier la « nouvelle rhétorique »... On doit à Perelman un véritable renouveau de l'intérêt pour l'argumentation"

¹³ - أطروحة يجمع عليها كثير من المعاصرين ذوي النزعة الحدائثة؛ مثل جمال الدين بن الشيخ في كتابه "الشعرية العربية"، وأدونيس في كتابه "الثابت والمتحول"، وكتبه الأخرى.

¹⁴ - القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، ط1، المكتبة العربية العصرية، صيدا-بيروت، 2006، ص14 وما بعدها.

15 - جابر عصفور: غواية التراث، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2011، ص157.

¹⁶ - ينظر تفصيل ذلك لاحقا، في هذا البحث، تحت عنوان: تجاوز البلاغة الغربية القديمة

¹⁷ - أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء-المغرب 2011، ص13

18- Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , 5eme édition 1988,université de Bruxelles,p1

19- صابر الحباشة : التداولية و الحجاج /مداخل و نصوص،صفحات للدراسات و النشر، دمشق ، سوريا2008، ط1، ص 69

20 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique ,p3

* - دلت كلمة "جدل" قديما على فن المخاطبة والمساجلة بواسطة الأسئلة والأجوبة، وعلى فن تصنيف المفاهيم. ويُعدُّ أفلاطون أول من أعطاها معنى مستحسنا، وكانت تدلُّ عنده على "الانتقال من مفاهيم إلى مفاهيم... وصولا إلى الكليات الأعم، والمبادئ الأولى". وجعلها أرسطو مقابلا للتحليل؛ فإذا كان التحليل يرمي إلى البرهان؛ أي الاستنتاج انطلاقا من مقدمات صحيحة، فإن الجدل يرمي إلى الاستدلالات العقلية التي تعالج آراء محتملة. وعند كانط أخذت معنى مستهجنا؛ حيث دلت على الاستدلالات الوهمية "منطق المظهر". وتحوّلت، عند هيغل، لتكتسب من جديد معنى مستحسنا، هو "التطبيق العلمي للتقيد بالقوانين، الملازم لطبيعة الفكر". يعلق لالاند على كلامه السابق: "حملت هذه الكلمة أنواعا من المعاني الكثيرة إلى درجة أنها لم تعد قابلة للاستعمال استعمالا مجديا إلا إذا جرى توضيح المعنى الذي تستعمل فيه". أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريف: خليل أحمد خليل، ط2، منشورات دار عويدات، بيروت - باريس 2001، ص274-272.

21 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique ,p6

22 - Ibid

23- يقول مترجما كتاب "البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية"، لفرانسوا مورو، في تقديم الكتاب: "إن واحدا من الأسباب الداعية إلى موت البلاغة يكمن في اختزالها إلى جزء واحد من أجزائها. وبهذا فقدت الرابط الذي يقرنها بالفلسفة عبر الجدل. ويفقدان هذا الرابط أصبحت البلاغة معرفة متسكعة وتافهة. لقد ماتت البلاغة حينما عوّض ذوق تصنيف المحسنات البلاغية المعنى الفلسفي، الذي كان يبعث الحياة في إمبراطورية البلاغة المترامية الأطراف، ويحافظ على الأجزاء مجتمعة بربطها بالأورگانون أو الفلسفة الأولى". (فرانسوا مورو، البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية، تر: محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص12)

24- يشير إلى هذا الاشتراك الاصطلاحي الذي يصل حد التماثل ب .شارودود ود.مانغونو، في: معجم تحليل الخطاب، ترجمة:صمادي حمود وعبد القادر المهيري، د.ط، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008، ص74.

25 – Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca:Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique ,p7.

- * - يفرق أرسطو بين الجدل والبلاغة بقوله إن الجدل "أداة المعرفة المحتملة"؛ أي إنه منهج لإنتاج المعارف العامة، التي يمكن أن توظف في المواقف الخطابية الثلاثة (المنافري، والمشاجري، والمشاورى). أما البلاغة فهي "لا تنتج المعارف... وإنما هي منهج للإقناع". (فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، ط1، مركز النشر العلمي (جامعة الملك عبد العزيز)، جدة -السعودية، 2011م، ص34)
- 26- يعلق فيليب بروتون وجيل جوتييه على ذلك بقولهما: " هنا يتقاطع بيرلمان مع إحدى القضايا الأساسية في البلاغة القديمة التي يمكن، بهذا المنحى، أن تتلاقى مع بعض الإشكاليات في النظريات الحالية للتلقي، والتي اشتهرت في أوساط علوم التواصل". (نفسه، ص45)
- 27- Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p2.
- 28 - Ibid, p3.
- 29- الإشارة هنا خاصة إلى ازدهار الفلسفة التحليلية، التي اتخذت من دراسة اللغة أساساً لها، والتي تفرعت إلى ثلاثة اتجاهات كبرى هي: الوضعانية المنطقية بزعماء رودولف كارناب، والظاهرية اللغوية بزعماء إدmond هوسلر، وفلسفة اللغة العادية بزعماء فتغنشتين. (مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005، ص 22)
- 30- Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p5. L'argumentation, quant a elle, utilise le langage naturel, ce qui explique son ambiguïté. Etant donné qu' elle est centrée sur l'homme et recherche l'adhésion de l'auditoire, l'argumentation présuppose par définition une « rencontre d'esprits ». L'argumentation est donc directement liée à l'idée d'auditoire : « Il faut qu'un discours soit écouté, qu'un livre soit lu, car, sans cela, leur action serait nulle » (Perelman, 1977, p. 23-24).
- Corinne Hoogaert, « Perelman et Toulmin. Pour une rhétorique néo-dialectique », *Hermès, La Revue* 1995/1 (n° 15), p. 155-169. P162
- 31 -Ibid.
- 32- Ibid,p8.
- 33- Ibid.
- 34-فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ص43.
- 35 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p8.
- * - تميز "الخطابة الجديدة" لـ ش بيرلمان ولـ البراخت -تيتايكا جمهور المستمعين الخاص من جمهور المستمعين الكلي، "المتكون من الإنسانية قاطبة، أو على الأقل: من كل الراشدين العاديين...". إن الجمهور الكوني يضمن عقلانية الخطاب، ومصدر ما يتسم به لا من سعي إلى الإقناع فحسب، بل إلى الاقتناع، وهو يمثل "مقياس الحجاج الموضوعي"... إن سلمية جماهير المستمعين تمكن من إعادة تحديد قيمة الحجج، التي تقيم حسب نوعية جماهير المستمعين التي تتقبلها". (ب -شارودودود.مانغونو: معجم تحليل الخطاب، م.س، ص.169-168).
- 36 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p8. Ibid,p9-37.
- 38- محمد سالم محمد أمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص110.
- 39- نقلا عن: فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ص45.
- 40- يتم التمييز، في نظرية بيرلمان وتيتكا، بين الإقناع والإقناع كهدفين للحجاج. وعليه، يكون الحجاج إقناعياً Persuasive، أو اقناعياً Convaincante؛ الأول جمهوره خاص، يعتمد على مخاطبة العاطفة والخيال، والثاني على الحرية والعقلنة (محمد سالم محمد أمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص108-109). أما وظائف الحجاج، فتتمثل في الإقناع الفكري الخالص، الإعداد لقبول أطروحة ما، الدفع إلى الفعل (نفسه، ص107). ويميز ديكرو بين الحجاج العادي والحجاج الفني؛ فالحجاج، كما تقدمه نظرية بيرلمان وتيتكا، هو "الحجاج العادي. ويعرفه ديكرو بأنه "مجموعة من الترتيبات والاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم في الخطاب قصد إقناع سامعيه. وتعتبر المظاهر الخاصة بالحجاج أثراً من آثار الخطاب، ولا يبحث لها عن صلة باللغات الطبيعية (نظر لهذا النوع من الحجاج إلى جانب بيرلمان "الأنساق المنطقية غير الصورية"، غريز "الأنساق المنطقية الطبيعية"). ويقابله عنده الحجاج الفني، ويعني الخطاب بالمعنى الفني صنفاً من العلاقات بين المضامين الدلالية تتحقق في الخطاب، وتكون مسجلة في اللسان" (ج. موشر- آ. روبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة بإشراف: عز الدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، منشورات دار سيناترا للنشر، تونس 2010، ص93).
- 41- نقلا عن: فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ص46.
- 42- محمد سالم محمد أمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص116.

43- يمكننا القول إنّ اقتران الحجاج، بما هو استدلال عقلي، بالصورة البلاغية، بوصفها مثيرا أسلوبيا، يجعل الخطاب يؤدي وظيفتين في الأوان ذاته: الوظيفة الإفهامية والوظيفة الشعرية حسب تصور جاكسون لوظائف التواصل، وحسب ما يستلزمه مفهوم "العنصر المهيمن"، الذي دُعِمَ به ذلك التصور. (يراجع المفهوماني في: رومان ياكسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988، ص ص32-33. وفي: روبرت شولز، إسهامات المدرستين الشكلية والبنوية في نظرية القصص، ضمن "القصة، الرواية، المؤلف - دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة"، تر: خيرى دومة، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص ص153-154).

44- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة "عالم المعرفة"، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، رقم 164، 1992، ص128.

45 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique ,p10.

46 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p731-734.

47-Ibid, p411.

* - تختلف تراتبية السلطات المحتج بها من ثقافة إلى ثقافة. وغني عن البيان أن ثقافتنا العربية الإسلامية تضع في أعلى السلم التراتبي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويتبعهما في الترتيب الشواهد الأخرى التي تكتسب قيمتها الحجاجية بقدر اقترانها من هذين المصدرين؛ هذا في الأمور الدينية والأخلاقية. أما في ميادين التخصص، ذات الصبغة الكونية، فقد تتغير هذه التراتبية.

48 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , p413.

49- مليكة غبار وآخرون، الحجاج في درس الفلسفة، د.ت، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص33.

50- يعرفها الباحثان بقولهما: ننظر إلى المماثلة باعتبارها تشابها بين بنيات، صيغتها الأكثر ورودا هي: (أ) يمثل ل(ب) ما يمثل ل(ج) ل(د)". ينظر:

Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , p500.

51 - Ibid, p535.

52- Ibid,, p731-734.

53- فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ص56.

54 - Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , p535.

55- تقابل البلاغة الجديدة، في الدراسات المعاصرة، ب"البلاغة العامة، التي اقترحتها جماعة MU عام 1970، والتي "مخورت مشروعها حول نوعية اللغة الأدبية، وجعلتها موضوع دراسة كاملة، مع أنها عملت في اتجاه إعادة الصلة بالتقليد البلاغي الفرنسي لدومارسي وفونتاني؛ فقد ظلت من أكبر البلاغات التي جدّدت البحث في الأسلوب بدعجه داخل إشكالات اللسانيات الحديثة". أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2011، ص7.

56 - Philippe Breton : L'argumentation dans la communication, 3e éd, PansLa Découverte, 2003- (Repères, 204), p10

57 - C:Perlman, Le champ de l'argumentation, Presses universitaires de Bruxelles 1970, p276.

58- Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, p231.